غايات التصوف
وأهم المبادئ التي يقوم عليها

د. ناصر صدقي محمد الهنقاري*

تمهيد

التصوف مذهب أخلاقي اجتماعي نفسي، له أسلوبه وطريقته وبراهينه وأدلته، ورجاله، وأبطاله، وهو -كما يقول ابن خلدون-: «من العلوم الشرعية الحادثة في الملة، وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين، ومن بعدهم، طريقة الحق والهداية، وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة، وكان ذلك عاما في الصحابة والسلف، فلمّا فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة ...»[1].

تحديد معنى التصوف

لأهل التصوف في تحديد معناه أقوال كثيرة، إذ يعبّر كلّ منهم عن ذوقه وإحساسه الوجداني الخاص به، فهم يصفون ما يعسر وصفه، ولا يتحدثون عن شيء مادي ذي حقيقة موضوعية قابلة للتحديد، وحتى من شغلوا بالتعريفات لم يتمكنوا من

---

* جامعة السابع من إبريل.

1- المقدمة، ابن خلدون 1197.

الإفلات من التعميمات، فقد جمع عبد القاهر البغدادي على الترتيب الأبجدي من مؤلفات أقطاب الصوفية الثقات ما يقرب من ألف تعريف[2] ونذكر من تلك المجموعة الكبيرة بعض النماذج لمعرفة حقيقة هذا الأمر:

- إن التصوف مشتق من الصفة لأن التصوف يحمل صاحبه على التحلّي بالمحاسن والصفات الحميدة، وعلى ترك الأوصاف الذميمة[3].
- إن التصوف مشتق من أهل الصفّة، وهم قوم من فقراء المسلمين أقعدتهم ظروفهم القاسية عن السعي في سبيل العيش وكسب الرزق، فأقاموا في صفّة المسجد، وهي مؤخرة مسجد النبي ﷺ بالمدينة المنورة متفرّغين كلية للذكر والعبادة، وهم الّذين قال الله في حقهم: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: 273][4].
- إن التصوف مشتق من الصوف أو من لبس الصوف، وذلك لما يغلب على الصوفي من لبس الصوف، وقد كان لبس الصوف علامة الزاهدين، وإمارة العابدين، حتى قيل: « إن من لبس الصوف عامدا لبسه قاصدا هدفه فقد تصوّف ».

وقد مال إلى تأييد هذا القول الدكتور زكي مبارك واستند في ذلك إلى عدة شواهد منها: ما حدّث به اليافعي من أن لباس الصوف كان غالبا على المتقدمين من سلف الصوفية لأنه أقرب إلى التواضع، والزهد، ولأنه لباس الأنبياء عليهم السلام، وقال الحسن البصري، أدركت سبعين بدريا كان لباسهم الصوف[5].

- إن كلمة تصوّف مشتقة من الصفا والتصفية، وهذا ما ذكره أغلب الصوفية للتعريف بأنفسهم من ذلك:
  - ما ذكره بشر الحافي من قوله: « الصوفي من صفا لله قلبه »[6].
  - ما ذكره سهل التستري من قوله: « الصوفي من صفا من الكدر وامتلأ من الفكر، وانقطع إلى الله من البشر، واستوى عنده الذهب والمدر »[7].

2- العقيدة والشريعة، جولد زيهر، تحقيق: يوسف موسى 147.

3- دائرة معارف القرن العشرين 5 /585.

4- عبد الرزاق نوفل، التصوف والطريق إليه 13-14.

5- زكي مبارك، التصوّف الإسلامي 1 /49 وما بعدها.

6- الموسوعة الفلسفية العربية 1 / 259.

7- التعريفات للجرجاني 59.

- وما ذكره الدينوري، من قوله: « التصوف: صفاء الأسرار وعمل ما يرضي الجبار »[8].
- وما ذكره الطوسي من قوله: « إن العبد إذا صفا من كدر البشرية يقال له قد صوفي فهو صوفي »[9].

وقد سار في هذا الاتجاه نفسه أبو الحسن النوري حين عرّف الصوفية بأنهم: « قوم صفت قلوبهم من كدورات البشرية، وآفات النفس، وتحرّروا من شهواتهم حتى صاروا في الصف الأول والدرجة العليا مع الحق، فلمّا تركوا ما سوى الله صاروا لا مالكين ولا مملوكين »[10].

وبمثل هذا قال أبوالقاسم الجنيد حين قال: « التصوف هو تصفية القلوب حتى لا يعاودها ضعفها الذاتي ومفارقة أخلاق الطبيعة، وإخماد صفات البشرية، ومجانبة صفات النفس »[11]. وما ذكره معروف الكرخي من قوله: « التصوف هو الأخذ بالحقائق واليأس مما في أيدي الخلائق »[12]. وما ذكره علي بن سهل الأصفهاني من قوله: « إن التصوف هو التبرّي عمن دون الله، والتخلّي عمّن سواه »[13].

وما ذكره الإمام الغزالي من قوله: « إن التصوف عمل مبني على العلم وقطع لعقبات النفس والتنّزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله وتحليته بذكر الله »[14]. ومثل ذلك قاله الشيخ أحمد زروق حيث قال: « التصوف صدق التوجه إلى الله تعالى من حيث يرضاه الحق تعالى وبما يرضاه »[15].

وقد ذكر في ذلك أبو الفتح البستي:

8- معجم مصطلحات الصوفية، د. عبد المنعم الحفني 45.
9- تنوير القلوب في معاملة علام الغيوب، محمد أمين الكردي 406.
10- التصوف الإسلامي في مدرسة بغداد، محمد جلال شرف 19.
11- نشأة التصوف الإسلامي، إبراهيم بسيوني 19.
12- المصدر نفسه.
13- اللمع، أبو نصر السراج الطوسي، ت: عبد الحليم محمود 42.
14- إحياء علوم الدين، الغزالي 1 / 30 وما بعدها.
15- قواعد التصوف 3 وما بعدها.

تنازع الناس في الصوفي واختلفوا   وظنه البعض مشتقا من الصـوف
ولست أمنح هذا الاسم غير فتــى   صفا فصوفي حتى سمي الصوفي[16].

إلى غـير ذلـك مـن الشواهد التي أوردها علماء التصوف وروّاده تأييدا للافتراض القائـل باشـتقاق كلمة التصوف من الصفاء والتصفية. إلا أن الدكتور زكي مبارك استبعده وعـدّه حذلقـة من بعض الصوفية، وغلب عليه الافتراض القائل بأن الصوفي منسوب إلى الصوف لمخالفة الصوفية الناس في لبس فاخر الثياب إلى لبس الصوف[17]. وقد اعتدل فـريق مـن الباحـثين المنصفين فقالوا في ذلك: إن الصوفي من لبس الصوف على الصفا واتبع طريقة المصطفى وكانت الدنيا منه على القفا[18].

وإن كـان لـنا مقـال في هـذا المجال فإننا نميل إلى القول بأن الصوفي مشتق من الصفاء للشواهد الكثيرة المؤيدة لذلك، ولتمشّيه مع طبيعة التصوف الحقيقي ومقتضياته وآثـاره ومـع أخلاق الصوفية الحقيقيين الذين يحرصون على أن تكون معاملتهم مع الله ومع أنفسهم ومع الناس معاملة كلها صفاء ونقاء.

ومهما يكن من أمر فإن أغلب التعريفات والتفسيرات على اختلاف ألفاظها تدور حول ثلاثة ركائز، وهي:

الأول: تعـريفات تـتحدّث عـن بدايات التصوف، وذلك كالتعريفات التي سبقت الإشارة إلـيها كشواهد وأدلة مدعّمة للافتراض القائل باشتقاق الصوفي من الصفاء، وهي تعريف بشـر الحـافي والتسـتري، والديـنوري والـنوري والجنـيد، وكـذلك تعـريف الكرخـي والأصفهاني.

الثانـي: تعريفات تتحدث عن التصوف من زاوية المجاهدات التي تمثّل الجانب العملي في المـنهج الصـوفي، ومـن هذه التعريفات تعريف أبي محمد الجريري للتصوف الّذي يقـول فيه: «التصوف هو الدخول في كل خلق سني والخروج من كل خلق دني». ومن ذلك أيضا تعريف الكتاني الّذي يقول فيه: «التصوف خلق، فمن زاد عليك في الخلق زاد علـيك في الصـفاء»، وكـذلك تعـريف الجنيد الّذي قال فيه: «التصوّف ذكر مع اجتماع ووجد مع استماع وعمل مع اتباع».

16- التصوف الإسلامي في مدرسة بغداد، مرجع سابق 25.

17- المصدر نفسه 19.

18- دائرة المعارف 5 / 588.

الثالث: تعريفات تتحدث عن التصوف من حيث ما فيه من مذاقات الاتصال، وذلك مثل تعـريف أبـي الحسين المزنـي الـذي يعـرّف التصـوف بأنـه: «الانقياد للحق»، وكذلك تعـريف الجنـيد بقوله «أن يكون الإنسان مع الله بلا علاقة». وقد حاول الدكتور إبراهيم بسيوني الذي أورد مجموعة من تعريفات التصوف التي تنتمي إلى الأنوع الثلاثة السالفة الذكـر أن يستخلص ممـا ذكـره مـن تعريفات التصوف التعريف التالي: «التصوف هو تـيّقظ فطـري يـوجه الـنفس الصـادقة إلى أن تجاهـد حتـى تحظـى بمـذاقات الاتصـال بالموجود المطلق»[19].

وممـن ناقشـوا التصـوف بوصـفه علمـا مستقلا من الصوفية القدامى الشيخ أحمد زروق في كـتاب مسـتقل أسمـاه قواعد التصوف، فقد جاء في بعض القواعد وهي الثالثة عشرة والرابعة عشرة والعشرون ما يلقي الضوء على طبيعة هذا العلم وموضوعه وغايته ومـنهجه فـيقول في هـذه القـواعد: «فائـدة الشـيء مـا قصد له وجوده، وفائدته حقيقته، وحقيقـته في ابـتدائه وانـتهائه أو فيهما كالتصوف علم قصد لإصلاح القلوب وإفرادها لله عمـا سواه، وكالفقه لإصلاح العمل وحفظ النظام، وظهور الحكمة بالأحكام، وكالأصول لتحقـيق المقـدمات بالـبرهان وتحلـية الإيمـان بالإيقان وكالطب لحفظ الأبدان وكالنحو لإصـلاح اللسان ... وقد صح أن شرف الشيء بشرف متعلّقه، ولا أشرف من متعلق علم التصـوف لأن مـبدأه خشـية الله الـتي هـي نتيجة معـرفته، ومقدمة اتباع أمره وغايته إفراد القلب له تعالى، فلذلك قال الجنيد: «والاشتراك في الأصل يقضي بالاشتراك في الحكم، والفقـه والتصوف شقيقان في الدلالة على أحكام الله وحقوقه، فلهما حكم الأصل الواحد في الكمال والنقص، إذ ليس أحدهما بأولى من الآخر في مدلوله»[20].

وقد صح أن العمل شرط كمال العلم فيهما وفي غيرهما لا شرط صحة فيه إذ لا ينتفـي بانـتفائه بـل قـد يكـون دونـه؛ لأن العلم إمام العمل، فهو سابق في وجوده حكما وحكمـة، بل لو شرط الاتصال لبطل أخذه كما أنه لو شرط في الأمر والنهي العمل للزم ارتفاعهمـا بفساد الزمان، وذلك غير سائغ شرعا ولا محمود في الجملة بل قد أثبت الله العلم لمن يخشاه فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: 28].

والخلاصـة -في نظـري- أن التصـوف الصـادق الخـالص الـذي تصـفو فيه روح

19- إبراهيم بسيوني 28.

20- قواعد التصوف، مرجع سابق 8-13.

الإنسان من كل المكدّرات ويحمله على اتباع الحق والتحلي بكل فضيلة ويأمره بالتخلّي عن كل رذيلة هو لب الإسلام وروحه وصفوة طريقته لأنه طريق الأولياء والصالحين المحسنين الّذين يقول عنهم القرآن الكريم: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: 26]، ويقول عنهم: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ [لقمان: 22].

والتصوف بمعناه القويم هو أن يبلغ المؤمن درجة الإحسان التي هي أعلى الدرجات في التوجه إلى الله تعالى والتي يشير إليها قول الله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: 69]. ولمعرفة هذا الإحسان الّذي هو أساس التصوف نذكر حديث الرسول ﷺ الذي رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث قال: «بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منّا أحد حتى جلس إلى النبي ﷺ فقال ما الإسلام؟ فقال ﷺ أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وأن تقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحجّ البيت إن استطعت إليه سبيلاً، فقال صدقت، ثم قال ما الإيمان؟ فقال ﷺ أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله واليوم الآخر، والقدر خيره وشره حلوه ومرّه، قال صدقت ثم قال ما الإحسان؟ قال أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ...» [21].

فهناك إذن إسلام، وهو الإذعان والاستسلام والخضوع للدين عن طريق الانقياد الظاهري والنطق اللساني وأداء العبادات. وهناك إيمان، وهو التصديق بالقلب والاعتقاد بالعقل والاطمئنان في النفس إلى صدق ما يقول اللسان. وهناك إحسان، وهو التوجه الكلّي إلى الله تعالى، والتعلّق الدائم به والتفكير الموصول في صفاته وآياته، والمراقبة المستمرّة لعظمته وجلاله، والمشاهدة المقيمة لأنواره وأضوائه، وهو «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك». فالإسلام يتمثّل في النطق بالشهادتين والقيام بالأعمال الظاهرة، والإيمان يتمثّل في اعتقاد القلب واطمئنان النفس إلى ما أمر الله به ونهى عنه، والإحسان يتمثل في اليقين والإخلاص لله في سائر الأعمال الظاهرة والباطنة، وهذا هو لب التصوف الصادق وعماد أمره. علاوة على أن كل أقطاب التصوف كانوا من العلماء الوقورين الذين تبحّروا في شتى مجالات العلوم فأكرمهم الله تعالى بما يردده الكثير من الجهلة زورا وجهلا بحالة أولئك الجهابذة الأفذاذ.

21- البخاري (فتح) عن أبي هريرة 1 /97،96، مسلم (نووي) 1 /157.

ولـيس التصـوف كمـا يدّعيه بعض العوام -قديما وحديثا- الّذين لا يميزون بين الـنور والـنار واعـتقدوا أن التصـوف هـو الميول والركون إلى الكسل والراحة والدعة أو الـرقص والتصفيق وضرب الأجساد بالنار والمسامير مع الجهل المطبق بمبادئ التصوف الحقيقية التي قال عنها الإمام التستري: «أصولنا ستة: التمسك بكتاب الله تعالى، والاقتداء بسنة رسول الله ﷺ وأكل الحلال وكف الأذى، واجتناب الآثام، وأداء الحقوق». وقال أبو اليـزيد البسـطامي: «لـو نظـرتم إلى الـرجل أعطى الكرامات حتى يرتقي في الهواء فلا تغتروا به حتى تجدوه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود وأداء الشريعة»[22]. والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

نشأة التصوف وأصوله الأولى في الإسلام

نشأ التصوف الإسلامي في أول ما نشأ في إطار الفطرة البشرية السليمة، وظروف البيئة العربية الإسلامية والتقاليد الأصيلة، ولم يخرج عن مبادئ الإسلام وتعاليمه كما هي في القـرآن الكـريم والسـنة المطهّـرة، وكمـا أخـذها الصـحابة الّـذين شـاهدوا التنـزيل ومارسوه، وكذلك من بعدهم من التابعين. فالتصوف الصحيح ينطلق في بدايته من شعور الإنسـان بفطـرته أن مـا يحيط به ليس هو كل الوجود وأن وراءه حقيقة كبرى تتوق إليها روحـه، وتطمـئن لدى تصورها نفسه، وتسعى جاهدة لتدنو منها وتتمثّلها وتستحضرها. وشعوره في الوقت نفسه أن الفواصل التي تحول بينه وبين هذا الاستحضار، تتلاشى شيئا فشـيئا كلمـا أمعـن في الـتأمل داخل ذاته، وكلّما تخلّص من أطماع نفسه ونوازع جسده وعندئذ تمتلئ جوانحه بفيض من النور الداخلي، ينعش الوجدان، ويثير الحماس، ويحثو الخطى نحو سكينة أتم وأشمل[23].

ولاشـك أن هـذا الشـعور الفطري الذي وجد لدى العربي حتى قبل الإسلام كان سـببا في تلـك النزعة التدينية الطاغية عند العرب قبل الإسلام، والتي ظهرت آثارها فيما بعـد، كما ذكر الدكتور زكي مبارك أن هذه الأمة «أمة عريقة في التدين، والتدين في ذاته تصوف؛ لأنه في ظاهره نوع من الضعف، والضعف باب إلى التصوف، فإن نفس الإنسان أشبه ما تكون بحيوان شرس يقاتل ويغالب ثم تأتي لحظات يصرعه فيها الضعف فيقف ويـتأمل مـن أيـن أتـى؟ وإلى أيـن يصـير؟ وينتهـي بـه الفكـر إلى الاقتناع بأنه مخلوق

22- قواعد التصوف، مرجع سابق 18، دائرة المعارف 3 /481.

23- إبراهيم بسيوني 17-18.

ضعيف، وعندئذ يكون التدين والمتدينون فريقين: فريق لا يزال يحس بالقوة والعافية فيجالد في ميادين الحياة، وفريق ينتهي به الضعف إلى التسليم المطلق فيرضى بالدون من العيش ويتوجّه إلى التفكير في ملكوت السماء ...» (24).

وإذا كان الإنسان في دور القوة والعافية أو الشباب تكون أطماعه في الأغلب مادية فيبني المنازل وينظّم المزارع، وينشئ المصانع، فإنه في دور الضعف أو الشيخوخة يقف موقف المتأمل فيما كان وما سيكون، ويتحوّل إلى قوة روحية يستر بها ضعفه الّذي رمته به أحداث الزمان، والمتصوف يتصنّع في البداية ثم يصير صوفيا بالطبع حين تغلب عليه قوة الفكر والتأمل. إذن فالتصوف نشأ في ظل الشعور بالضعف، أي في اللحظة التي شعر فيها بالحقيقة الثابتة، وهي أن كل مخلوق ضعيف فلابد أن يخضع إلى خالق قوي، ولا يكون ذلك القوي إلا الله رب العالمين.

فيوم عرف الإنسان قيمة نفسه، واطمأن إلى أنه مخلوق ضعيف إن تخلّت عنه عناية الله لحظة واحدة هلك، ورأى أن مآل كل قوة إلى ضعف، وكل حياة إلى موت، وكل شروق إلى غروب، وأقرب المصادر إلى ذهن الإنسان المسلم هو القرآن الكريم الّذي أطال القول في ذم الدنيا وقضى بأنها لعب ولهو، وأنها في نضارتها ليست إلا متاع الغرور، والإنسان -كما جاء وصفه في القرآن الكريم- هو خليفة الله في الأرض إذا صفت سريرته وحمدت سيرته، مع أنه لا يخرج عن كونه مخلوقا ضعيفا تغريه النعمة وتطغيه، ويذله الفقر ويؤذيه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 30]. وقال تعالى: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ [ص: 26]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الفاتحة الإسراء: 70]. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [الشورى: 27]. وقال تعالى: ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: 28]. وقال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾ [العلق: 6-7].

وعلى كل حال فسياق الكلام في القرآن الكريم كله يتجه وجهة روحيه، ويذكّر المرء بربّه ويخوّفه من بطشه ويبشّره بما أعدّه الله من خير عظيم ونعيم مقيم لمن خاف مقام ربّه ونهى النفس عن الهوى. ومن أهم العوامل التي أنعشت التيقظ الصوفي لدى

24- التصوف الإسلامي 3وما بعدها.

المسلمين تلك الآيات القرآنية الكثيرة التي تحرّك مشاعر الخوف من الله تعالى والخشية له، والرغبة في طاعته، ونبذ المعاصي والزهد في متاع الدنيا الفانية[25].

وعليه فيمكن القول بأن التصوف الإسلامي بوصفه سلوكا وطريقة في الحياة ومعرفة وعملا وعبادة خالصة لله تعالى وتوجّها إلى الله ومراقبة وخشية له، وتوكلا عليه وتسليم كل أمر إليه وانقطاعا إليه وتعلّقا به لا ينفصل عن أركان الإسلام والإيمان، بل هو من صميمهما ومتمم لهما فهو -كما ذكرنا في التعريفات- ينتهي إلى درجة الإحسان التي أخبر بها الرسول ﷺ: «أن تعبد الله كأنك تراه»، والذي يعد ركنا ثالثا للدين، يأتي لاحقا أو مصاحبا للركنين السابقين «الإسلام، والإيمان».

وليس في التصوّف الإسلامي المعتبر أمر يعتد به إلا ومصدره القرآن الكريم والسنة المطهّرة، إذ لا حكم فيه إلا للشرع لقوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [النساء: 59]. وجميع الأخلاق والآداب والمراتب والمقامات والأحوال الصوفية يستمد أصولها من أخلاق الرسول ﷺ ومن سيرته العطرة، ولا تخرج أخلاق الرسول عليه السلام عن أخلاق القرآن الكريم كما نطقت بذلك السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها حين سئلت كيف كان خلق الرسول ﷺ فقالت كان خلقه القرآن.

المبادئ التي يقوم عليها التصوف السليم

يقوم التصوف السليم البعيد عن الغلو والتطرّف على مجموعة من الأسس والمبادئ التي تمثّل الجانب الأكبر من فلسفته ومرتكزاته ومن أهمها ما يلي:

أولاً: إن التصوف السليم ينطلق من مقام الإحسان الذي يعني المراقبة لله في كل شيء، ولا يعني بأي حال من الأحوال الغلو في الدين أو المبالغة في الزهد.

فالتصوف الإسلامي السليم إيجابي يؤكد صلة الإنسان برسالته في الحياة كخليفة في الأرض، ويساهم في تعميرها، مصداق ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30] وقوله تعالى: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ [ص: 26]، والإسلام الّذي يعتمد عليه التصوف الحقيقي السليم البعيد عن الشوائب التي ألحقت به من جهلة العوام المنتسبين والمريدين ضد الرهبنة، وضد الاتجاه السلبي في

25- التصوف الإسلامي 3 وما بعدها.

الحياة، وينكر لغة الجسد، ويؤكد على ضرورة التوافق بين النفس والجسد، وفي هذا التوافق الأمن والأمان والسلام العام للفرد والجماعة، وعليه فالإسلام روحانية إيجابية يتعمق في نفس المسلم ووجدانياته، وهو إلى هذا مادية تزخر بالقوة، وهذا المعنى قريب إلى قول الرسول ﷺ: « إياكم والغلو في الدين، فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين »[26] وقوله عليه الصلاة والسلام: « لن يشاد الدين أحد إلا غلبه »[27].

ويقول ابن خلدون في تأكيد هذا المعنى: « إن الإسلام حي قوي فأفلح المسلمون في المحافظة على الانسجام بين روحانياته، وبين حياته المادية الزاخرة، فإذا مالت إحدى الكفتين أو أهملت فقد الإسلام حقيقته »[28]. فتأكيد الذات أمر ضروري لتحقيق تكامل الإنسان، ولن تتأكد الذات إلا إذا تحقق التوازن بين إرضاء الحاجات الروحية، وإرضاء الحاجات المادية، وعلينا أن نؤمن بأن المادة ليست مصدر شرّ الذات، بل كثيرا ما تكون ملهمة إياها بالمعاني والصور، وسمو الذات وارتقاؤها لا يكون باستبعاد المادة وتحطيم الجسم، ولن تكون المادة أو الجسم عائقا للذات المتكاملة عن التطور، بل إنهما مصدر دائم لتألق الروح، وفي إمكاننا على الدوام أن نتمتع بما أحل الله في هذه الأرض دون أن تستهلكنا الأرض في شهواتها ودون أن يستهلكنا التصوف السلبي المنحرف.

ثانياً: يعتبر الزهد أحد الأركان الأساسية للتصوف الصحيح وهو مرتبط بالمعرفة والعبادة، وفي ذلك يقول الشيخ أحمد زروق -رحمه الله تعالى- في القاعدة العاشرة من قواعده التي وضعها للتصوف السليم : « فلابد للعارف من عبادة، وإلا فلا عبرة بمعرفته إذا لم يعرف معبوده، ولابد من زهادة وإلا فلا حقيقة عنده إذا لم يعرض عمن سواه، ولابد للعابد منهما، إذ لا عبادة إلا بمعرفة، ولا فراغ للعبادة إلا بزهد، وإلا عاد بطالة،، نعم من غلب عليه العمل فعابد أو الترك فزاهد أو النظر لتصريف الحق فعارف، والكل صوفية ... »[29].

ومن الضروري على الباحث العاقل عدم الخلط بين الزهد الطبيعي المعتدل الذي يعتبر ركنا من أركان التصوف، وأحد المقامات الأساسية التي يتدرّج فيها السالك إلى الله

26- سنن ابن ماجة 3029.

27- البخاري (فتح) 1 /39.

28- المقدمة 345.

29- قواعد التصوف، أحمد زروق، مرجع سابق ص7-8.

تعـالى، وبـين التصـوف السـلبي الّـذي يبـتعد بصـاحبه عن العمل وعن السعي في سبيل العـيش والـرزق الحلال، فالزهد المقبول من الناحية الإسلامية يمثل الناحية العملية التي يحـياها الناسـك في مظهـره الخارجـي مـن تقشّف في المأكل والمشرب والملبس وفي وصـفه الداخلـي مـن خشـية الله تعالى والورع والتقوى، وذكر الله وصفاء النفس. فالزهد الحقيقـي هـو: «أن تـترك بعـض ما تملك، كما أن العفاف أن تكون عند القدرة مسيطرا على نفسك»(30).

ولـيس في التصـوف الإيجابـي المقـبول إسلاميا وصف للدنيا بأنها دنسة، بل هي محل لكسب العيش الحلال، وفي القرآن الكريم والسنة المطهرة الكثير من الأدلة المؤيدة لهـذه النظـرة الإيجابية في التصوف الإسلامي، وما فيه من زهد، من ذلك قول الله تعالى: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾ [الملك: 15]، وقوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [البقـرة: 168]، وقـوله تعـالى: ﴿لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: 87]، وقول الرسول ﷺ: «فإن لجسدك عليك حقا»(31).

ثالـثاً: الإيمـان بـأن الوصول إلى الله تعالى لا يستلزم الفناء التام في الله تعالى وبأن قرب الإنسـان مـن الله عـز وجـل لا يقتضـي أن يفـني وجـوده في وجود الله، كما يقول أتباع الحركة الإشراقية، فالصوفي الحقيقي هو الّذي يشيد بالذات القوية التي تعلو على الفناء، وتحتفظ بإنسيتها حتى في أشد المراتب والمقامات الصوفية قربا(32).

وهـدف الصـوفي الكامـل تحقيق رضا الله تعالى، وإن صدق التوجه إلى الله الّذي يعبر عن حقيقة التصوف مشروط من حيث يرضاه الحق تعالى، وبما يرضاه ولا يصح مشـروط بـدون شرطه، ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ فلزم تحقيق الإيمان ﴿وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: 7] فلزم العمل بالإسلام.

إن الإسـلام يـؤكد فـردية الإنسـان وحريته الكاملة في الاختيار، وأيا كان المصير النهائي للإنسان فإنه لا يعني فقدان فرديته وحريته، فالقرآن الكريم يؤكد أن الإنسان يأتي يـوم القيامة فرداً، ليرى عواقب ما أسلف من عمل، وليحكم بنفسه على إمكانات مصيره فقـال تعـالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا

30- قواعد التصوف ص4.

31- البخاري (فتح) 2 /697.

32- إبراهيم بسيوني مرجع سابق ص59-65.

وكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً﴾ [مريم: 93-95]. كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾ [الإسراء: 13-14].

رابعاً: الإيمان بأن الخبرة الدينية لا تعدو أن تكون مجموعة من العواطف الأولية الفطرية التي توحي بها تجربة الحياة للإنسان، والتصوف مظهر من مظاهر التدين، وهو لا يكون إلا في القلب، ويمكن القول عنه: إنه الصدق في العواطف الدينية الذي يجمع بين الصورة القولية، والصورة العملية، والذوق والوجدان الصوفيان مرتبطان بالعاطفة الدينية النقية، وبالحب الخالص لله تعالى ولرسوله ﷺ، وقد وضع الصوفية منهجا نظريا وسلوكيا يعتمد على القلب، مستندين في ذلك إلى نصوص القرآن الكريم والسنة المطهّرة، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ﴾ [الحديد: 28]. وقوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ﴾ [الأنعام: 125]. وقد بين الرسول ﷺ معنى هذا الشرح في هذه الآية فقال ﷺ في تأكيد أهمية القلب وعلو منزلته في الشريعة والأخلاق: «استفت قلبك وإن أفتاك المفتون»[33].

وتأتي أهمية القلب في العقيدة والشريعة والتوجه الصوفي، وأهمية المنهج القلبي من كون المنهج القلبي يصحبه عادة مجهود عملي تطهّري، ومن كون صلاح القلب ينتج عنه تطهّر الجوارح، وإذا كان الإسلام يعني الانقياد لما تأمر به العقيدة والشريعة، فإن هذا الانقياد لا يكون تاما، ولا صحيحا على أساس من العقل وحده لأنه ليس في الناس على درجة واحدة، ولأنه ليس ملزما للبدن.

خامساً: الإيمان بأن التصوف الحق ليس كلاما مجردا يردد، ولكنه مجاهدة وعمل شاق قائم على أساس من العلم، يهدف إلى تحرير الروح من الأغلال المادية والقيود الجسدية، وإلى إصلاح القلب وإفراده لله تعالى عما سواه، شأنه في ذلك شأن الفقه بالنسبة لإصلاح العمل، وشأن الطب في حفظ الأبدان، وشأن النحو في إصلاح اللسان، كما يهدف أيضا إلى بناء وتقوية محبة الله عز وجل في القلب عن طريق المحبة، فالمحبة غاية التصوف ووسيلته، يبدأ السالك في التعرّف على الله تعالى، وبهذا التعرّف تنفتح له أسباب العلم، ويجد محبة الله تعالى تفيض عليه، وكلما ازداد سلوكا وعمقا في

33- مجمع الزوائد 1 /175.

الطـريق زاد حـبا لله، فالطـريق يوصـله إلى الحـب، والحب يدفعه إلى الطريق، وفي هذا يقـول أبـو حمـزة البغدادي: « ومن المحال أن تحبه ثم لا تذكره، ومن المحال أن تذكره ثم لا يوجدك طعم ذكره، ومن المحال أن يوجدك طعم ذكره ثم يشغلك بغيره »[34].

سادساً: الإيمـان بـأن العلـم إمـام العمـل، فهـو سـابق علـيه في الوجود حكما وحكمة، والإيمـان بـأن الفقـه سابق على التصوف، يقول الشيخ أحمد زروق في تأكيد هذا المبدأ: « فلا تصوف إلا بفقه، إذ لا تعرف أحكام الله الظاهرة إلا منه، ولا فقه إلا بتصوف، إذ لا عمـل إلا بصـدق تـوجّه ولا هما إلا بإيمان، إذ لا يصح واحد منهما دونه، فلزم الجميع لـتلازمها في الحكـم كـتلازم الأرواح للأجساد »[35]. ويقول الشيخ زروق أيضا في تأكيد هـذا المـبدأ: « علـم بـلا عمـل وسـيلة بلا غاية، وعمل بلا علم جناية... فمن لم يظهر له نتـيجة علمـه في عمله فعلمه عليه لا له، وربما شهد بخروجه منه إن كان عمله مشروطا بعلمـه، ولـو في بـاب كمالـه ... ولا يصـح العمـل بالشـيء إلا بعد معرفة حكمه، فقول القائـل: لا أتعلـم حتى أعلم، كقوله لا أتداوى حتى تذهب علتي، فهو يتداوى ولا تذهب علّـته، ولكن العلم ثم العمل، ثم النشر، ثم الإجادة... فلا يكفي التصوف عن الفقه، بل لا يصح دونه، ولا يجوز الرجوع إليه إلا به، وإن كان أعلى منه مرتبة فهو أسلم وأعلم منه مصـلحة، فصـوفي الفقهـاء أكمـل من فقيه الصوفية وأسلم، لأن صوفي الفقهاء قد تحقق بالتصوف حالا وعملا وذوقا ... ومن ثم صحّ إنكار الفقيه على الصوفي، ولا يصح إنكار الصوفي على الفقيه، ولزم الرجوع من التصوف إلى التفقه والاكتفاء دونه »[36].

الخاتمة

مـن خـلال ما تقدم ذكره عن مفهوم التصوف وخصائصه ومبادئه يتبين بجلاء أن مـا اصـطلح العلمـاء علـى تسـميته بالتصوف هو حركة تربوية في جوهرها، ترمي إلى تصفية القلب وسمو الروح وتهذيب الخلق وصيانة الجوارح عن كل انحراف أو معصية، فهـو تخلـية مـن كـل الأدران والانحرافات، وتحلية بكل صفات الكمال الممكنة للكائن البشـري عـن طريق الرياضة الروحية، والتدريب العملي على العبادة، والالتزام بالفضائل حتـى يـتحقق الـتدرّج في سـلّم الرقـي الروحي والخلقي عبر مراتب ومقامات وأحوال

34- عبد الرزاق نوفل، مرجع سابق 45.

35- قواعد التصوف، مرجع سابق 22.

36- المصدر نفسه 15.

معينة هي صفات خلقية في المقام الأول، والفضائل والقيم التي يتمسك بها الصوفي لها من الاتساع ما يشمل جميع الفضائل مما له عند الصوفية أهمية خاصة، لأنه يمثل عندهم حالا أو مقاما أو مرتبة من الأحوال التي تعتريهم، والمقامات والمراتب التي يتدرجون فيها في سلوكهم إلى الله.

ومن الغايات الأساسية التي يسعى التصوف الإسلامي -بوصفه سلوكا- إلى تحقيقها عن طريق العبادات والمجاهدات والرياضات الروحية، والعمل بمقتضى تعاليم الدين الإسلامي ما يلي:

1. تطهير القلب، وتزكية النفس، وإيقاظ الضمير، والوصول إلى معرفة الله عن طريق النظر الصحيح، وتوجيه الله وهديه، وتوثيق الصلة بالله، والإعداد لتحقيق السعادة الأخروية التي هي بقاء لا فناء له، وسرور لا غم فيه، وعلم لا جهل معه، وغنى لا فقر يخالطه.
2. التحرر من عيوب النفس والقلب من رياء وحسد وحقد وكذب وغيبة ونميمة وتكبّر، وما إلى ذلك من عيوب النفس وأمراض القلب، والتحكم في نزعات النفس وشهواتها، ومقاومة كل مغريات الانحرافات في السلوك.
3. التحلي بالفضائل التي دعا إليها الدين الإسلامي من إيمان وتوبة وتقوى لله وخشية منه، وذكر دائم له وتعظيم له ومعرفة به، وتسليم كل الأمور إليه، وحب له وفيه، وتمسك بتعاليمه، واستقامة على طريقه، وصدق وإخلاص في القول والعمل، وأمانة في المعاملة، وما إلى ذلك من الأخلاق الفاضلة .
4. توجيه وجدان البشرية نحو الخير، وإشاعة روح التراحم والتآخي والتعاون والتضامن في المجتمع الإسلامي وإذابة الفروق المذهبية في المجتمع الإسلامي.
5. الإيمان بالله تعالى وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر لقول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: 3-5]. ولقوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: 22].
6. العمل بمقتضى الإيمان بالله والتمسك بتعاليم الدين، وتقوى الله وخشيته والخوف منه، ودوام مراقبته، والاستقامة على دينه والتوكل عليه، وحسن الظن به ودوام الذكر له والرجوع إليه، لقوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: 1-3]، وقال عز وجل: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: 5]. وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: 2-3]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: 28]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: 2]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: 30]. وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران: 191]. وقوله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: 28].

7. الصدق والأمانة والإخلاص وإسلام الوجه لله تعالى والتواضع والصبر والحلم والزهد فيما في أيدي الناس وطلب الرزق والأخذ بالأسباب والشجاعة وعزة النفس والثقة بما عند الله، لقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: 119]. وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [المؤمنون: 8]. وقوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾ [الكهف: 110]. وقوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً﴾ [الفرقان: 63]. وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: 146]. وقوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: 9]. إلى غير ذلك من الفضائل والأخلاق التي يتمسك بها علماء الصوفية ويحثون مريديهم عليها

وبناء عليه فإن التصوف الحقيقي كما أراده السابقون من القرون هو خلق عظيم وسلوك قويم، واتباع للقرآن الكريم واتباع لسنة النبي الرؤوف الرحيم، وما خرج عن ذلك فهو ضرب من اتباع الهوى والبدع والإحداث في الدين، ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: 63]، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.